دور الجاحظ في الدرس الصَّوتي العربي

*عائشة محمد عثمان**

ملخص

إنَّ الغاية من هذا البحث هي قراءة جزء من الإرث الجاحظي الموسوعي، ورصد بعض من آراء الجاحظ الصوتية ومناقشتها. كونه عالماً لغوياً فذّاً، طرق جوانب عدَّة في اللُّغة العربيَّة وأبدع في كل ما تطرق إليه.

إذ تظل آراء الجاحظ في مجالات شتَّى تستوقفنا ما دمنا نطالع كتبه، حيث خلَّف لنا آراء قيِّمة ما تزال محط اهتمام الدارسين، ومبعث إعجابهم.

واستيفاء للغرض من هذا البحث فقد تناول جمعا من القضايا الصوتية التي عرضها الجاحظ في مؤلفاته، مناقشا لها؛مثل حديثه عن عيوب النطق سواء أكانت عيوباً ناتجة عن نطق الأعاجم لأصوات العربية أم تعريفه للصوت وإشارته إلى الحروف الأكثر دوراناً في الكلام وتوضيحه لأهمية الأسنان في النطق وأصعب الحروف نطقاً، وعلاقة مغارز الأسنان بالنطق وكذلك إشاراته إلى أهمية الحروف وتوضيحه بعض مخارج الحروف، وملاحظاته حول تنافر الألفاظ وتنافر الحروف.

الكلمات الدالة: عيوب النطق، الدِّراسات الصوتية التَّركيبية، تنافر الألفاظ، تنافر الحروف.

المقدمـــة

يحتلُّ الجاحظ مكانةً أدبيةً ولغويةً سامقة يكاد لا ينازعه فيها منازع؛نظراً لما عرف عنه من غزارة علمه وموسوعيته في التأليف، وتبحره في جوانب متنوِّعة من العلوم، الأمر الذي أهَّله ليترأس إمامة مؤلفي النَّثر العربي ونقاده.

موضوع البحث

يتناول هذا البحث إسهامات الجاحظ الصَّوتية، لنعرف دور هذا العالم الجليل – الذي عرف بإسهاماته الأدبية والنقدية –في الدرس الصوتي العربي، وربطه بمعطيات الدرس الحديث، حيث يمكن وضع الجاحظ بوصفه لغويا في مكانة بارزة عليَّة إلى جانب مكانته الأدبية السامقة.

أهمية البحث

تنبثق أهمية هذا البحث من:

1. إهمال الباحثين دور الجاحظ اللغوي والتَّركيز على آرائه النَّقدية والأدبية حسب.
2. بيان آراء الجاحظ في الدَّرس الصَّوتي، وإيضاح مكانته فيه.
3. مناقشة آراء الجاحظ وفق ما جاء به علم اللغة الحديث.

أهداف البحث

1. توضيح آراء الجاحظ الصوتية.
2. ربط آراء الجاحظ الصوتية بعلم اللغة الحديث وتوضيح مكانته.

الدَّراسات السابقة

لا شكَّ أنَّ البحث قد أفاد من بعض الدِّراسات السَّابقة التي عرضت للقضايا الصَّوتية عند الجاحظ نحو:

1. دراسة ياسين، عالية محمود، 2003، ، حيث تطرقت لبعض القضايا الصَّوتية في كتاب البيان والتبيين، وأشارت إلى ذلك بقولها:"ومهما يكن من أمر، فإن الجاحظ، في البيان والتبيين، على نحو خاص، وفي مؤلفاته الأخرى، كالحيوان، على نحو عام، جدير بالدِّراسة من ناحية صوتية، وهي دراسة تقوم، في رأينا، على لملمة ما تناثر في مؤلفاته من خطرات وآراء صوتية يمكن أن تكون مؤشراً دالاً على رسوخ قدم هذا العالم في ميدان من الدَّرس اللُّغوي."[1]
2. دراسة علي، رحيم جمعة، 2008، الذي "اختار جانباً من اهتماماته اللُّغوية في الدَّرس الصَّوتي والنُّطقي ودروس الصَّرف، وركز فيه على مشكلتي نطق الضاد وصوتها بين القدماء والمحدثين وعيوب اللسان، واقتران حروف العربية."[2]
3. دراسة جاسم، جاسم علي، 2013، حيث هدفت دراسته إلى بيان آراء الجاحظ في كل من الموضوعات التالية: علم اللغة النفسي، وعلم اللغة الاجتماعي، والترجمة، وتعليم

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الدمام، السعودية. تاريخ استلام البحث 2014/9/15، وتاريخ قبوله 2014/11/17.

© 2016 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

اللغات وعلم اللغة التقابلي، وتحليل الأخطاء والمفردات الشائعة والنحو التعليمي وإثبات ريادته في علم اللُّغة التَّطبيقي في التُّراث العربي القديم.[3]

ولعلَّ ما ينفرد به هذا البحث عن الدِّراسات السَّابقة هو استكماله القضايا الصّوتية عند الجاحظ التي لم تتطرق لها تلك الدِّراسات، إضافة إلى ربطه لآراء الجاحظ الصَّوتية بالدرس الصَّوتي الحديث.

الجاحظ والدَّرس الصَّوتي

عُني علماء العربية قبل عصر الجاحظ بمسائل مُتعلِّقة بالدَّرس الصَّوتي ومنهم على سبيل المثال الفراهيدي وسيبويه والفراء والأخفش، إذا إنَّهم تناولوا مجموعة من الدِّراسات الصَّوتية التَّركيبية التي لم يتناولها الجاحظ كالإبدال والإعلال والقلب والإدغام والإخفاء والإظهار والوقف والمعاقبة.[4] إضافة إلى بعض المعالجات التَّطبيقية لظواهر الإسكان، والإتباع والإشمام، والإمالة، والتقاء الساكنين، والتَّثقيل والتَّخفيف، والحركة المُركَّبة، والروم، والمدَّ ولم يتناول الجاحظ هذه المسائل بالدَّرس على حدّ علمنا.

و الجاحظ وعلى الرَّغم من كونه من أصحاب المُصنَّفات الأدبيَّة إلا أنّه تنبَّه للظَّواهر الصَّوتية، إذ إنه عرف اختلاف اللهجات، ونبَّه على التبدلات الصوتية للغة العربية عند الأعاجم، وعالج في كتابه (البيان والتبيين) الأصوات التي تدخلها اللثغة،[5] ودرس التلعثم الذي تنبهت عليه الدراسات الحديثة.

فهو لم يؤلف كتاباً خاصّاً بالأصوات بل ضمَّن إسهاماته في هذا المجال كتابه "البيان والتبيين" وكانت إسهاماته منقطعة النظير، فهو لم يقلد السابقين له تقليداً أعمى، لكنه وبإفادته مما قدَّموه لفت أنظار قرائه إلى ظواهر أخرى هو الرائد في مجالها وهو حديثه عن عيوب النطق سواء أكانت عيوباً ناتجة عن نطق الأعاجم لأصوات العربية أم ناتجة عن نطق العرب، وقبل ذلك كله نجده قد عرَّف الصوت وأشار إلى الحروف الأكثر دوراناً في الكلام وكذلك أوضح أهمية الأسنان في النطق وأصعب الحروف نطقا، وعلاقة مغارز الأسنان بالنطق وكذلك أشار إلى أهمية الحروف وأوضح بعض مخارج الحروف، كما أشار إلى تنافر الألفاظ وتنافر الحروف.

و يتضَّح اهتمام الجاحظ بالدرس الصوتي من خلال ما نجده في مؤلفاته من حديث عن الأصوات ففي الحيوان مثلا تجده قد أشار إلى سرعة الصوت وتأثيره وما يخترع الأصوات واللحون من الطير، فقال في سرعة الصوت:" ومتى رأيت البرق سمعت الرعد بعد، والرعد يكون في الأصل قبله لا يصل إليك إلا في سرعة البرق؛ لأن البارق والبصر أشد تقارباً من الصوت والسمع، وقد ترى الإنسان وبينك وبينه رحلة، فيضرب بعضاً إما حجراً وإما دابة، وإما ثوباً فترى الضرب، ثم تمكث وقتا إلى أن يأتيك الصوت.[6]

وقال في تأثير الأصوات: "وأمر الصوت عجيب وتصرفه في الوجوه عجب، فمن ذلك أن منه ما يقتل، كصوت الصاعقة، ومنه ما يسرُّ النفوس حتى يفرط عليه السرور، فتقلق حتى ترقص، وذلك مثل هذه الأغاني المطربة.ومن ذلك ما يكمد، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه، كنحو هذه الأصوات الشجية، والقراءات الملحنة، وليس يعتريهم ذلك من قِبَل المعاني؛ لأنهم في كثير من الأحيان لا يفهمون معاني كلامهم. وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبي الخوخ فقيل له: كيف بكيت من كتاب لا تصدق به؟ قال:إنما أبكاني الشجا. وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال.[7]

وكذلك يقول الدكتور أحمد الطيب: "الأصوات أنواع: منها الصوت الرائع، وهو أنس لما به أنس ووحشة لمن استوحش منه ونعيم مقيم لقوم، وعذاب أليم عند قوم.[8]

منهج الجاحظ في دراساته الصوتية:

اعتمد الجاحظ ثلاثة أسس في دراساته الصوتية:

1. ملاحظاته الشخصية في مجال الأصوات والعيوب، ومثال ذلك قوله: "ولكل لغة حروف تدور في أكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين، واستعمال الجرامقة للعين".[9]
2. المرويات سواء أتلك التي رواها هو أم رويت له.ومثال ذلك مما روي له قوله:" وقال أهل التجربة: إذا كان في اللحم الذي فيه مغارز الأسنان تشمير وقصر سمك، ذهبت الحروف وفسد البيان. وإذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئا يقرعه ويصكه، ولم يمر في هواء واسع المجال، وكان لسانه يملأ جوبة فيه، لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المغتفر والجزء المحتمل".[10]
3. الملاحظات التي قرأها لارسطو. لجأ الجاحظ أحياناً إلى الآراء التي سبقه إليها ارسطو واستدل على صحة رأيه بها، ومثال ذلك قوله: "زعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان أن السبع والبهيمة كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح وأبين، وأحكى لما يلقن ولما يسمع كنحو الببغاء والغداف وغراب البين".[11]

تعريف الجاحظ للصوت

قال:"الصوت هو اللَّفظ والجوهر الذي يقوم به التَّقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً، ولا كلاماً

موزوناً، ولا منثوراً، إلا بظهور، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة.

بهذا التعريف جعل الجاحظ الصوت آلة اللفظ؛ لأنك لا تستطع أن تكوَّن لفظا دون صوت.

وممن علّق على هذا التَّعريف من المحدثين إدريس بلمليح[12] في حديثه عن نظرية الكلام عند الجاحظ بقوله: "إنَّ أول ما يطالع قارئ الجاحظ من هذه النظرية هو أن الكلام صوت وتقطيع وتأليف ونظم، فالكلام عند أبي عثمان "جسم" ولذلك فهو يحتمل ما تحتمله الأجسام من اجتماع وافتراق، ويحتمل الزيادة والنقصان والفناء والبقاء.

ولعلنا لا نتفق مع بلمليح في قوله إن الجاحظ جعل الكلام جسم يحتمل ما تحتمله الأجسام بما في ذلك الفناء والبقاء.وذلك لأن الجاحظ عرَّف الصَّوت بأنه آلة اللفظ واللفظ هو الكلام– تقول قول: لفظ بالشيء أي تكلَّم به.[13]

والكلام لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة [14] تحصل باهتزاز الحبال الصوتية ثم بعمل أجزاء النطق الأخرى ثم من بعد ذلك يكون التّقطيع والتَّأليف.

إنَّ إدراك الجاحظ بأن اللفظ هو عبارة عن مقاطع صوتية تنتج عنها حروف وأصوات، ليعبر عن القدرة التي أوتيها في معاينة اللغة يضاهي في ذلك ما أشار إليه اندري مارتنييه عن التلفظ المزدوج Double articulation[15] يقول الجاحظ: "الصوت وهو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف... ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف."[16]

أكثر الحروف دوراناً

أشار الجاحظ إلى مسألة صوتية غاية في الأهمية وهي عن أكثر الحروف دوراناً في الكلام، فقال أنشدني ديسم، قال أنشدني أبو محمد اليزيدي:

وخلة اللفظ في الياءات إن ذكرت

كخلة اللفظ في اللامات والألف

وخصلة الراء فيها غير خافية

فأعرف مواقعها في القول والصحف

يزعم أن هذه الحروف أكثر ترادا من غيرها، والحاجة إليها أشد قال: "واعتبر ذلك بأن تأخذ عدة رسائل وعدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم، فإنك متى حصلت جميع حروفها وعددت كل شكل على حدة علمت أن هذه الحروف الحاجة إليها أشد.[17]

ولبيان ذلك نعرض خطبة قصيرة للنبي – صلى الله عليه وسلم– بعشر كلمات، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين: بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفس لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فوا الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مُستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النَّار."[18]

الألف

أيها	الناس	نهاية	مخافة

الياء

نهاية	الشيبة	الحياة	دنياه

اللام

آخرته	الكبر	النار	دار

الراء

آخرته	الكبر	النار	دار

يلاحظ تكرار كل حرف من الحروف المذكورة أربع مرات في تلك الخطبة.

هذه الحروف التي وصفها الجاحظ بأنها أكثر ترداداً في الكلام أهلته ليكون رائد هذه الظاهرة في علم اللغة التطبيقي[19] لقد بيَّن الجاحظ أسس هذا العلم بقوله:" يزعم أن هذه الحروف أكثر ترادا من غيرها، والحاجة إليها أشد..." كذلك أشار في موضع آخر إلى أسهل الحروف نطقاً عند بعض الأمم فقال:"لكل لغة ألفاظ تدور في أكثر كلامها، كنحو استعمال الروم للسين، واستعمال الجرامقة للعين"[20]

أمَّا الميم والباء ففيهما قال الجاحظ:"والميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال، كقولهم "ماما" بابا" لأنهما خارجان من عمل اللسان، وإنما يظهران بالتقاء الشفتين."[21]

ويكمن سر نطق الأطفال لها في أن الشفتين موجودة بوجود الطفل أما الأسنان فتتكون بعد مرحلة عمرية معينة، وكذلك اللسان يحتاج إلى تمرين لا يستطيعه الطفل في ذلك الحين.

ومما يتوافق مع هذا الرأي ما جاء به جاس وسلينكر بقوله: "عندما يبلغ الطفل ستة أشهر من العمر تقريبا يبدأ بالتَّحول إلى أصوات أكثر شبهاً باللغة والتي تُسمّى البأبأة حيث تتكون غالباً من تتابعات من صامت فصائت مثل بابابا، دادادا..."[22]

الصوت الجهير

تطرق الجاحظ في الأصوات إلى الصوت الجهير بقوله: "وكانوا يمدحون الجهير الصوت. ويذمون الضئيل الصوت؛ لذلك تشادقوا في الكلام ومدحوا سعة الفم، وذموا صغر الفم."[23]

وقد عرَّف ابن منظور الجهارة تحت مادة "جهر" بقوله: "الجهر: ما ظهر، ورآه جهرة لم يكن بينهما ستر، وفي التنزيل "أرنا الله جهرة"[24]أي عياناً يكشف ما بيننا وبينه، ويقال:جهرت بالشيء إذا كشفت، والجهر يعني العلانية، يقال: جهر بالقول إذا رفع صوته فهو جهير، وأجهر فهو مجهر، إذا عرف بشدة الصوت، وجهر بكلامه ودعائه وصوته وصلات وقراءته ويجهر جهراً وجهاراً ورجل جهير الصوت أي عالي الصوت.[25]

والجهر عند سيبويه:" حروف أشبع الاعتماد في موضعها حتى منع النفس من أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت."[26]

قال الجاحظ: "كان العباس بن عبد المطلب جهير الصوت، وقد مدح بذلك، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين."[27]

أهمية الأسنان في النُّطق:

تنبَّه الجاحظ إلى الأهمية القصوى للأسنان في عملية النطق وسلامة الأداء اللغوي حيث قال: قال سهل بن هارون: "لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف وتكميل آلة البيان لما نزع ثناياه" وذلك لأن للأسنان دوراً كبيراً في نُطْق الكثير من أصوات العربية، مثل "الظَّاء" و"الذَال" و"الثَّاء" و"النُّون "والدَّال"و"التَّاء". فمخرج الدَّال والتَّاء يكون بالتقاء طرف اللِّسان مع أُصول الثَّنايا العليا، أمَّا الظَّاء والذَّال والثَّاء فمخرجها ممَّا بين طرف اللِّسان وأطراف الثَّنايا."[28]

أمَّا النّون والفاء فمخرج النُّون من طرف اللِّسان بينه وبين ما فُويق الثَّنايا[29]لكن مخرج الفاء بين باطن الشِّفة السُّفلى وأطراف الثَّنايا العُليا.[30]

ولأهمية الأسنان بالنِّسبة للخُطباء قال الجاحظ: "قال خلاَّد بن يزيد الأرقط: خطب الجمحي خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام، وكان في كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة، فأجابه زيد بن علي بن الحسين بكلام في جودة كلامه، إلا أنه فَضَلَه بحسن المخرج، والسلامة من الصفير، فذكر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سلامة لفظ زيد لسلامة أسنانه، فقال في كلمة له:

قَلَّتْ قوادِحُها[31] وتَمَّ عديدُها

فله بذاك مَزِيَّةٌ [32]لا تنكر

و يروى "صحَّتْ مخارِجَها وتمَّ حروفها".

وهذا ما جاء علم النطق الحديث ليؤكده فهناك مجموعة من المشاكل في الأسنان التي تؤثر على نطق الأصوات الكلامية ومن هذه المشكلات فقدان بعض الأسنان وضيق التجويف الفموي.

قال: وزعم يحيى بن نُجيم بن معاوية بن زمعة، أحد رواة أهل البصرة أن يونس بن حبيب الضَّبي قال في تأويل قول الأحنف بن قيس:

أنا ابنُ الزافرية أرْضعتني

بثــدي لا أجــجَّ ولا وخيــم

أتمَتَّني فلمْ تنقص عِظامي

ولا صوتي إذا جدَّ الخصوم

قال: إنَّما عنى بقوله "عِظامي" أسنانه التي في فيه، وهي التي إذا تمَّت، تمَّتْ الحروف وإذا نقصت، نقصت الحروف.[33]

و كذلك في أهميتها قال: "و لم يتكلَّم معاوية منذ أن سقطت ثناياه. قال: أبو الحسن وغيره: لمَّا شقَّ على معاوية سقوط مقادم فيه، قال يزيد بن معن السُّلمي: "والله ما بلغ أحدٌ سنَّكَ إلاَّ أبغض بعض بعضاً، ففوك أهون علينا من سمعك وبصرك "فطابت نفسه."[34]

قال: لولا المنابر والنِّساء، ما باليت متى سقطت. وهو بذلك يشير إلى الأهمية القصوى للأسنان خاصة لدى الخطيب، ويؤكد الجاحظ أن من سقطت أسنانه جميعها أبين ممن ذهب شطرها أو ثلثاها، يقول: قال محمد بن الرومي، مولى أمير المؤمنين: قد صحت التجربة وقد قامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها، وخالف أحد شطريها الآخر.[35]ويقول: وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهدهم الناس بعد أن سقط جميع أسنانهم، وبعد أن بقي منها الثلث أو الربع.

وأثبت كلامه هذا بقوله:"فمن سقطت جميع أسنانه وكان معنى كلامه مفهوماً:الوليد بن هشام القحذمي، صاحب الأخبار، ومنهم أبو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبي، وكان ذا بيان ولسن.[36]

قال: وكان سفيان بن الأبرد الكلبي كثيراً ما يجمع بين الحار والقار فتساقطت أسنانه جميعها، وكان في ذلك كله خطيباً بيناً.

ومن الملاحظات القيمة التي ذكرها الجاحظ عن علاقة الأسنان وتواجدها بالنطق ما ذكره عن الأهتم، إذ يقول: "وليس شيء من الحروف أدخل في باب النَّقص والعجز من فم الأهتم من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة.[37] والأهتم كما جاء في لسان العرب:هتم فاه يَهْتِمه هتْماً:أُلقي مقدَّم أسنانه، والهُتَمُ: انكسار الثَّنايا من أصولها خاصّة، وقيل من أطرافها.هتم هتما وهو أهتم بيِّن الهتم، وأهتمته إهتاماً إذا كسرت أسنانه، وتهتم الشيء تكسَّر، وذلك لأن مخرج هذه الحروف مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا لذلك صعبت على الأهتم الذي فقد أسنانه.

وكذلك لاختلاف منابت الأسنان من حيث الطول والقصر والدخول والخروج أثرٌ أيضاً في تأدية الأصوات بصورة واضحة وهذا العيب في الأسنان يُسمى الشَّغا؛ لذلك قال الجاحظ:[38]كان زيد بن جندب أشغى افلج[39]ولولا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة.

قال الجاحظ:"وفي الخطباء من كان أشغى، ومن كان أشدق ومن كان أروق، ومن كان أضجم، ومن كان أفقم." وهذا الذي ذكره الجاحظ عالجه المحدثون فيما يسمى باضطرابات النطق، التي تتمثل في إبدال أو تشويه أو حذف الأصوات.

فالجاحظ من خلال آرائه السابقة تناول موضوعاً ذا علاقة وثيقة بالأمراض الكلامية والعيوب النطقية، وهو ما أصبح علما مستقلا في العصر الحديث (Speech-language pathology) يدرس ويقيم اضطرابات التواصل البشري، وهي اضطرابات النطق واللغة والصوت واضطرابات الفصاحة(التأتأة)، الأمر الذي يؤكد تفطن الجاحظ وتنبهه في وقت مبكر لمسائل تؤثر في سلامة نطق الأصوات وبالتالي التأثير في الإبانة والإفصاح.

علاقة مغارز الأسنان بالنطق:

لقد كان الجاحظ دقيقاً في ملاحظاته الصوتية إذ لم يربط العيوب الصوتية بالأسنان وحدها بل أرجعها إلى قضية مغارز الأسنان، فالجاحظ اعتمد في آرائه على ملاحظاته ومشاهداته الشخصية وتجارب الآخرين واتكأ على الشواهد والأمثلة للشرح والتحليل.

قال: "وقال أهل التجربة:"إذا كان في اللحم الذي فيه مغارز الأسنان تشمير وقصر، ذهبت الحروف وفسد البيان" وهنا نجد أن الجاحظ قد اتبع أحدث مناهج البحث المتبعة حالياً وهي (الملاحظة والتجربة)، كما أشار إلى أن عظم اللسان نافع لمن سقطت أسنانه، فقال: "إذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئاً يقرعه ويصكه ولم يمر في هواء واسع المجال، وكان لسانه يملأ جوبة فمه، إذا كان كذلك لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المقتفر والجزء المحتمل.[40]

قال:ويؤكد ذلك قول صاحب المنطق، فإنه زعم في كتاب الحيوان:أن الطائر والبهيمة، كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح وأبين، وأحكى لما يلقن ولما يسمع، كنحو الببغاء، وغراب البين وما أشبه ذلك.[41]

دور اللّسان في النُّطق

تحدّث الجاحظ عن اللسان كأحد أعضاء النطق الأساسية ومن أحسن ما قاله قول العبّاس بن عبد المطلب: قال وقال العباس بن عبد المطلب للنبي _صلَّى الله عليه وسلَّم_: يا رسول الله، فيم الجمال؟ قال: في اللسان.[42]

وللسان دورٌ كبير في نطق معظم أصوات اللغة من ذلك مثلاً ما أشار إليه سيبويه بقوله: "ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف، ومن أسفل من موضع القاف قليلا ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء ومن أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد، ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان وما بينها وبينما يليها من الحنك الأعلى مخرج اللام، ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء، ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء، ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء[43].

وهذا يوضح أن للسان دوراً كبيراً في النطق.

قال الجاحظ: قال خالد بن صفوان: "ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة "[44]

وكان يقال: "عقل الرجل مدفون تحت لسانه".

وقال: قال صاحب المنطق: "حد الإنسان الحي الناطق المبين" والمقصود هنا هو اللغة والبيان والفصاحة. وقال: قال بكر بن عبد الله المزني[45]: "طول الصمت حبسة قال:وكيف يكون الصمت أنفع، والإيثار له أفضل ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعم ويخص، والرواة لم ترو سكوت الصامتين، كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت، ومواضع الصمت المحمودة قليلة ومواضع الكلام المحمودة كثيرة، وطول الصمت يفسد اللسان.

وهو يشير بذلك إلى نفع الكلام وفائدته وهي أعم من الصمت وما قيل عن الكلام من فضة والصمت من ذهب يعني به إذا لم يستطع الإنسان أن يصلح بلسانه أو يفيد بما يقوله فخير له أن يصمت، في هذه الحالة فقط يكون السكوت من ذهب، لكن هل يكون الصمت من ذهب والحرمات تنتهك أمامك، في هذه الحالة يكون الكلام من ذهب ويكون الساكت عن الحق شيطان أخرس. وفي فضل القول يقول الجاحظ[46]:"إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلدت نفسه وفسد حسه، وكانوا يروون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت، وتحقيق الإعراب؛ لأن ذلك يفتق اللهاة، ويفتح الجُرُم[47].

ويقول كذلك: واللسان إذا أكثرت تقليبه رقَّ ولان، وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكاته جسأ وغلظ.

قال:" وما نشك أنه عليه السلام قد نهى عن المراء، وعن

التزيد والتكلّف، وعن كل ما ضارع الرياء والسمعة، وعن التهاتر والتشاغب، وعن الممانتة والمغالبة، فأما نفس البيان، فكيف ينهى عنه[48].

إن الجاحظ هنا لم يكتف فقط بعرض المشكلة بل قدم حلولا لها فطلاقة اللسان وفصاحته تكمن في مرانه وتدريبه المستمر على الكلام وتجنيبه طول الصمت.

فالجاحظ يؤكد أن التكرار والتمرين والتدريب والحفظ لكلام العرب؛يعرب اللسان ويزيده فصاحة، متفقا بذلك مع الدراسات اللغوية التطبيقية الحديثة؛ من أن المحاكاة والتمرين والتدريب على النطق السليم الوسيلة الأكثر نجاحا في اكتساب اللغة بطلاقة.

مخرج الضاد:

إنَّ حرف الضاد من الحروف التي اتسمت بها العربية حتى سميت بلغة الضاد وذلك لأن هذا الصوت كان شاقا عصيا على ألسنة المولدين، من أجل هذا سميت العربية بلغة الضاد.

قال ابن جني: واعلم أن الضاد للعرب خاصة ولا يوجد من كلام العجم إلا في القليل.[49]

و يقول الخليل في مخرجها: والجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأها من شجر الفم أي مفرج الفم.[50]

أمَّا سيبويه فيوضح ما قاله الخليل بقوله: ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد.[51] أمَّا الجاحظ فيبين مخرج الضاد بتوضيحه كيفية نطق سيدنا عمر رضي الله عنه لهذا الصوت، فيقول: "فأما الضاد فليست تخرج إلا من الشدق الأيمن، إلا أن يكون المتكلم أعسر يسرا[52]مثل عمر بن الخطاب، فإنه كان يخرج الضاد من أي شدقيه شاء، فأما الأيمن والأعسر.[53]والأضبط[54]، فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه، ومثل لكيفية النطق تلك بقوله: "و كذلك الأنفاس مقسومة على المنخرين، فحالا يكون في الاسترواح ودفع البخار من الجوف إلى الشق الأيمن، وحالا يكون من الشق الأيسر، ولا يجتمعان على ذلك في وقت إلا من يستكره ذلك مستكره، أو يتكلفه متكلف، فأما إذا ترك أنفاسه على سجيتها لم تكن إلا كما قالوا "[55]وهو بذلك يتفق مع ما جاء به سيبويه من قبل.[56]

ولصعوبة نطقها عند غير العرب قال الجاحظ: "ليس للروم، ولا للفرس ضاد، ولا للفرس ثاء، ولا للسرياني ذال" وأشار كذلك إلى إبدال الذال المعجمة دالاً فقال:"والصقلبي يجعل الذال المعجمة دالاً في الحروف " وهذا النوع من الإبدال موجود في لهجاتنا العربية، فهذه الذال في العامية السودانية تصير ضاداً، أما في المصرية تصبح دالاً. فيقولون في ذيل "ديل" وسبب الإبدال هو قرب مخرج الذال من الدال، بالإضافة إلى اشتراكهما في الصفة وهي الجهر.

قال:"والنخَّاس يمتحن لسان الجارية إذا ظنَّ أنها روميَّة وأهلها يزعمون أنها مولّدة بأن تقول "ناعمة" و"شمس" ثلاث مرات متواليات.[57]

وكان قبلا قد أوضح أنه يستعصي على الرومي نطق الضَّاد ويسهل عليه نطق السين، أما العين فقد أثبت سهولة نطقها عند الجرامقة.

و أشار إلى ذلك بقوله:" النبطي القح يجعل العين همزة فيقول في مشمعل/مشمئل."[58]

تنافر الألفاظ وتنافر الحروف:

تناول الخليل هذا الموضوع في أكثر من موضع من كتاب العين، وجاء الجاحظ مؤكدا رأيه في وجود هذا التنافر حيث قال: ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر

وليس قرب قبر حرب قبر

قال الجاحظ:

ولمَّا رأى من لا علم له أن أحداً لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن صدقوا بذلك.

قال وأنشدني أبو العاصي قال: أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى:

وبعض قريض القوم أولاد علة

يكد لسان الناطق المتحفظ.[59]

قال: وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحي:

وشعر كبعر الكبش فرق بينه

لسان دعي في القريض دخيل

أما قول خلف *وبعض قريض القوم أولاد علة*

فإنّه يقول: إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات.

وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة.

قال: وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان.

وأمَّا قوله: "كبعر الكبش "فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش

يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاور. وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة مُلْساً، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كان البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد.[60]

قال:فقيل لهم: فأنشدونا بعض ما لا تتباين ألفاظه، ولا تتنافر أجزاؤه، فقالوا: قال الثقفي[61]:

من كان ذا عضد يدرك ظلامته

إن الذليل الذي ليس له عضد

تنبو يداه إذا ما قل ناصره

ويأنف الضيم إن أثرى له عدد

وأنشدوا:[62]

رمتني وستر الله بيني وبينها

عشيــة آرام الكناس رميـمُ

رميم التي قالت لجارات بيتها

ضمنت لكم ألا يزال يهيمُ

ألا رب يوم لو رمتني رميتها

ولمن عهدي بالنضال قديمُ

قال المُبرِّد في تفسير ذلك: "لو كنت شاباً لرميت كما رميت، وفتنتُ كما فُتنت، ولكن تطاول عهدي بالشباب.

وأنشد ابن الأعرابي:

وبات يدرس شعرا لا قرآن له

قد كان نقحه حولا فما زادا

وقال بشار في واصل بن عطاء:[63]

فهذا بداية لا كتحبير قائل

إذا ما أراد القول زوَّره شهراً

وهكذا نجد أن الجاحظ قد ربط بين البيان وعدم التنافر بين مجموع الألفاظ التي تؤلف الجملة، [64] ويعد الجاحظ سباقا في الجمع بين تنافر الحروف وتنافر الألفاظ حيث اكتفى من سبقه من العلماء في الحديث عن تنافر الحروف فقط.

قال: فهذا في اقتران الألفاظ، فأما في اقتران الحروف، فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم أو تأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال، بتقديم ولا بتأخير، وهذا باب كبير، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري."[65] وفي هذا إشارة إلى البناء الصوتي للكلمة العربية، وما يأتلف في نسجها وما يختلف.

ونقل السيوطي في المزهر قول الفارابي في ديوان الأدب: قال: "القاف والجيم لا يجتمعان في كلمة واحدة في كلام العرب والجيم والتاء لا تجتمع في كلمة واحدة من غير حرف ذلوقي، ولهذا ليس الجبت من محض العربية والجيم والصاد لا يأتلفان في كلام العرب ولهذا ليس الجص ولا الأجاص ولا الصولجان بعربي، والجيم والطاء لا يجتمعان في كلمة واحدة، ولهذا كان الطاجن والطيجن مولدين؛ لأن ذلك لا يكون في كلامهم الأصلي[66] وهو بهذا يوافق الجاحظ الرأي.

و نلمس ممَّا سبق وجها من وجوه الشبه بين ما جاء به الجاحظ ودراسة أصوات اللغة في الدرس اللساني الحديث الذي يتم وفق نمطين اثنين:

الأول: الدراسة الصوتية النطقية Articulation التي تتوخى وصف كيفية إنتاج أصوات الكلام ووصف مخارج الحروف التي تشكل الصوت اللغوي الصحيح بحيث لا تتنافر الحروف مراعاة ليسر النطق وثبات الصوت في الاستعمال إذ تأكد لدى علماء اللغة أن الكلمات المندثرة كان أغلبها مؤلفاً من حروف صعبة التجاور.

الثاني: الدراسة الصوتية السمعية Acoustique المعنية بدراسة الخصائص الفيزيائية للصوت اللغوي المنطوق، وهذا ما أورده الجاحظ فالجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين لا بتقديم ولا بتأخير، فالجاحظ بهذا التحليل يحاول وضع أسس للصوت بحسب قوته من الجهر أو الهمس؛ فالحروف التي تختلف في السمات الصوتية المؤلف من حروف متباعدة المخارج مختلفة السمات الصوتية.[67]

وفي سياق الإيضاح أكثر عن كراهية التنافر ذكر الجاحظ التلاؤم الصوتي واللفظي ليؤكد بذلك كراهية التنافر فيقول: "أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان."[68]

الخاتمة

وختاماً فقد سعى البحث إلى تسليط الضوء على دور الجاحظ في الدرس الصوتي العربي، وتوضيح إسهاماته الهامة في هذا المجال، وعرض آرائه التي ميزته عمن سبقوه.

وقد جاءت آراؤه من واقع ملاحظاته الشخصية أو من خلال ما روي له ممن يثق بهم ويتفق مع رأيهم، أو من خلال قراءاته الواسعة.

وقد بيَّن الجاحظ دور اللسان في النَّطق وأهميته، وعلاقة مغارز الأسنان بالنطق، وتنبَّه إلى دور عيوب النطق في تشويه إخراج الأصوات، فضلاً عن حديثه عن تنافر الحروف وتنافر الألفاظ حيث بيَّن مجموعة من الحروف التي لا يمكن أن تتجاور في اللُّغة العربيَّة، وتؤدي إلى صعوبة في النُّطق.

الهوامش

(1) ياسين، الدرس الصوتي في التراث البلاغي العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، ص40.
(2) علي، الدرس الصوتي والصرفي عند الجاحظ المتوفي 255هـ، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 52.
(3) جاسم، اللغة التطبيقي في التراث العربي الجاحظ نموذجا دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية المجلد 40، العدد 2013، 2، ص296.
(4) ينظر الفهرس التحليلي لكتاب سيبويه، ج5 ص:244، 257، 240، 245، 266، 291.
(5) الجاحظ، البيان والتبيين1/12-80.
(6) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص، 408.
(7) السابق نفسه، ص:191.
(8) الطيب، أصوات وحناجر، ط1، ص:25.
(9) الجاحظ، البيان والتبيين، ط1، 64/1.
(10) المرجع السابق1/62، 61.
(11) الحيوان 288/5.
(12) بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ط1، ص:139.
(13) ابن منظور، لسان العرب، ط1، مادة لفظ، ص461.
(14) السابق نفسه، مادة كلم.
(15) منقور، علم الدلالة وأصوله ومباحثه في التراث العربي، ص:123.
(16) البيان والتبيين 84/1.
(17) السابق نفسه، 22/2.
(18) السابق نفسه، ج123/1.
(19) جاسم، مرجع سابق، ص311.
(20) الجرامقة: طائفة من الدلدانيين أي السريانيين/البيان 65.
(21) البيان والتبيين23/1.
(22) جاس، ولاري سلينكر، اكتساب اللغة الثانية مقدمة عامة، 150/1
(23) السابق نفسه 23/1.
(24) سورة النساء، آية 153.
(25) لسان العرب، مادة "جهر"
(26) سيبويه، الكتاب، ط2، 146/4.
(27) ابن هشام، السيرة النبوية، ط1، ص:88.
(28) البيان والتبيين59/1.
(29) ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص:67.
(30) الكتاب 433/4.
(31) القادح: آكال يقع في الأسنان.
(32) الفضيلة.
(33) البيان والتبيين59/1.
(34) السابق نفسه 60.
(35) البيان ص:61.
(36) البيان، 61.
(37) البيان61/1.
(38) السابق 45.
(39) أفلج، الفلج: شق في الشفة العليا.
(40) البيان والتبيين61/1.
(41) الحيوان288/5.
(42) البيان والتبيين17/1.
(43) الكتاب 489/2.
(44) البيان والتبيين170/1.
(45) نسبه إلى مُزينة أبو عبد الله البصري ثقة جليل توفي 106هـ، انظر: تهذيب التهذيب.
(46) البيان والتبيين272/1.
(47) الجُرْم: الحلق.
(48) البيان والتبيين273/1.
(49) ابن جني، سر صناعة الإعراب، ط3، 223/1
(50) العين، 65/1.
(51) الكتاب، 489/2.
(52) رجل أعسر أيسر: يعمل بيديه جميعاً.
(53) الأعسر: الذي يعمل بيديه جميعاً.
(54) الأضبط: فسر أيضا بأنه الأعسر نفسه.
(55) البيان والتبيين63/1.
(56) الكتاب488/2.
(57) البيان71/1.
(58) السابق 65.
(59) البيت في العمدة172/1.
(60) البيان1/ 67.
(61) الثقفي:هو الأجرد الثقفي: كما في الشعر والشعراء 175- وانظر أمالي ثعلب 74 وعيون الأخبار 2/3) والحيوان (45/3).
(62) الأبيات لأبي حية النميري/الحماسة110/2، الحيوان49/3.
(63) البيان والتبيين68/1.
(64) السابق 86.
(65) السابق69.
(66) السيوطي، المزهر في علوم اللغة، ط1، ص:270.
(67) منقور عبد الجليل، علم الدلالة:121-122.
(68) البيان والتبيين 67/1.

المصادر والمراجع

بلمليح، ادريس، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ط1، دار الثقافة، المغرب، 1984.

الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، ط1، دار الفكر، بيروت، 64/1.

الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1988، ج4.

جاس، سوزان، ولاري سلينكر، اكتساب اللغة الثانية مقدمة عامة، ترجمة ماجد الحمد، جامعة الملك سعود الرياض، 2009، 150/1

جاسم، جاسم علي علم، اللغة التطبيقي في التراث العربي الجاحظ نموذجا دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية المجلد 40، العدد 2، 2013.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1982، 146/4.

الطيب، أحمد، أصوات وحناجر، ط1، دار الطباعة والنشر، جامعة الخرطوم، 1975.

علي، رحيم جمعة، الدرس الصوتي والصرفي عند الجاحظ المتوفي 255هـ، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 52، جامعة الموصل، 2008.

منقور، عبد الجليل، علم الدلالة وأصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001،

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، د.ت، مادة لفظ.

ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: عمر عبد السلام، ط1، دار الريان للتراث، القارة، 1987.

ياسين، عالية محمود، الدرس الصوتي في التراث البلاغي العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2003.

Al-Jahith Role in the Arab Voice Lesson

*Ayshah M. Othman**

ABSTRACT

The purpose of this research is to read part of Al-Jahith inheritance polymath, and monitor some of his views and discuss them. Being a scientist linguistically astute, his excellence in several aspects of the Arabic language.

The purpose of this research is to addressed the gathering of audio issues presentation by Al-Jahith in his writings, discussing it like talking about the disadvantages of speech, whether in defects resulting from the pronunciation of the Persians to the voices of the Arab and defined sounds and referring to characters most rotation in speech and explaining the importance of teeth in pronunciation and harder characters spoken, and the relationship of dental alveolar pronunciation and also pointed to the importance of letters and explaining some of pronounciation of characters, also pointed to the repulsion words and repulsion characters.

Keywords: Pronunciation Flaws, Studies Compositional Voice, Words Repulsion, Letters Repulsion.

* Faculty of Arts, University of Dammam, Saudi Arabia. Received on 15/9/2014 and Accepted for Publication on 17/11/2014.